يَهزِم الطاغية بالقرآن

كان (يحيى بن يعمر) الإمام العالم الفقيه النحوي المحدث من التابعين الكبار، الذين تلقوا العلم عن سلف الأمة العظام، وأدرك قادتها الأبطال الميامين، الذي كان الواحد منهم أمة وحده، وكيف لمن أدرك هؤلاء ألا يكون كما كان يحيى بن يعمر، شجاعًا مقدامًا قويًا أبيًا، شديدًا في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم.! قال عنه النسائي و أبو حاتم: ثقة، وذكره بن حبان في الثقات، وقال: كان من فصحاء أهل زمانه، وأكثرهم علمًا باللغة مع الورع الشديد.. وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، وقيل: إنه أول من وضع نقط الحروف..

لقد كان هذا العالم النحرير على موعدٍ مع الصدام بالطاغية الجبار (الحجاج بن يوسف) أكبر طاغية أثيم عرفه تاريخ أمتنا القديم، وكان هذا الصدام أشبه بمناظرة علمية، وفتوى دينية، لم يشأ فيها يحيى أن يُغضب الله برضا الطاغية، ولم يرض أن يتاجر بعلمه، ليرسل رسالة واضحة من عمق الماضي السحيق.. لهؤلاء الحمقى الذين يحملون العلم بين ضلوعهم ولا يتقون الله فيه، ولا يبتغون به وجهه الكريم، ويجعلونه رخيصًا هينًا، يرضون به رغبات السلطان وطموح الحكام.. لقد وقف هذا العالم العظيم، بكل صراحة وشجاعة، يُعلن الحق وينصف الصواب، ويُخالف رغبة السلطان وهواه، غير هياب أو خائف من بطش السفاح الحجاج.. وما أرداك ما الحجاج؟! فحينما نقول كلمة الحجاج وننطق بهذا الاسم، لا يجب أن يمر علينا مرور الكرام ،حتى نعرف حجم الهول الذي يحمله هذا الاسم.. إنه الحجاج الذي بلغ من وقاحته وجرأته أن ضرب بيت الله الحرام بالمنجنيق!

أمثل هذا الطغيان الشديد، يستطيع أن يقاومه أو يصلب أمامه أحد، أو يفكر حتى في مجرد اعتراضه؟ لا يستطيع أحد فعل ذلك إلا أولو العزم من

الرجال الأبطال، الذين يقدسون معنى الحق، ولا يخافون غير الله سبحانه وتعالى.. ولقد كان (يحيى بن يعمر) واحدًا من هؤلاء الرجال الأقوياء والأبطال الأماجد، الذين تلقوا العلم على يد الصحابة الصناديد.. أما الخبيث الحجاج فكان رجل بني أميه وفارسهم الأول أو سفاحهم الأول! الذي قضى على أعدائهم، ومكن لملكهم في الأرض بالسيف والقتل والدماء.. وكان يستهدف أهل البيت وكل من شايعهم، لأنهم أنداد بني أميه من يصارعونهم على الملك.. ولكي يخدم أسياده، ويقدم لهم فروض الولاء، ويفعل من الأفاعيل ما يثبت ملكهم، رأى لنفسه يومًا أن يطلق دعوى زائفة.. لا يريد بها العلم والحق، وإنما يبتغي بها نفاق سادته، الذين أطلقوه على رقاب الناس دون خشية أو رحمة.. فأعلن على الناس: أن الحسين هو ابن علي بن أبي طالب، وليس من ذرية الرسول ﷺ، وأما انتسابه للسيدة فاطمة ﷺ، فلا يزيده من الأمر شيئًا، ولا يؤهله لدعوى أنه من ذرية الرسول ﷺ أو من ولده، لأن الأب هو المعتبر في النسب.!

جاء ذلك في خطبة خطبها على الناس، وأطلق فيها هذا الاجتهاد المريب، وأمر أتباعه أن ينقلوا إليه كل من يعارض هذه الفكرة، وهذه الألمعية والاجتهاد العبقري الفريد.. وسرعان ما جاءه النبأ بأسرع مما كان يتخيل.. حين بلغه أن يحيى بن يعمر رد كلامه ورفضه، وأفتى بغيره، وقال: بأن الحسن والحسين من ذرية الرسول ﷺ، وأنه زاد وتجرأ فقال: بأن الحجاج يحكم ولا يفتي، فإذا أفتى ففي غير علم واعتقاد.!

ولما بلغ الحجاج هذا القول، رأى أنها فرصة سانحة ليعاقب بها هذا المجترئ يحيى بن يعمر، على هذا التطاول وهذه المعارضة الجريئة، لأنه بحسب ظنه، يقول كلامه بلا دليل من القرآن أو الحديث.. فأخذ يَعد العدة لمحاكمته ومناظرته، وإحراجه والتنكيل به، فأرسل في طلبه، وقبل مجيئه

جمع حشدًا هائلا من حاشيته ووجهاء الكوفة، وأرسل كذلك فدعا أتباع يحيى ومناصريه ليشهدوا إهانة شيخهم، وهو يخطئ في العلم والفتوى وما يبدو عليه من ضعف الحجة والدليل.! ولما جاء يحيى دُهش من هذه الجماهير الغفيرة، ولكنه لم يتهيب ذلك، ودخل صلبًا ثابتًا، وأطلق السلام في هدوء ووقار.. وهم أن يجلس، فإذا الحجاج يصيح به ويقول: لا تقعد يا يحيى وأوضح لنا رأيك في صلة الحسين برسول الله ﷺ.. ولعل القارئ يظن أن يحيى وفي ظل هذا الفزع، يمكن أن يُغير كلامه، أو أنه لو نطق به لربما حكاه بكل لطف ولين، حتى لا يُثير عليه حمأة الطاغية، خاصة بعد أن صار الصراع وجهًا لوجه.. لكن يحيى لم يكن من الذين يخافون أو يهادنون في الحق أحدًا، مهما بلغ شأنه وعظم خطره.. فإذا به يقول في تحد منقطع النظير: إن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ وإن غضب الحجاج.! فاستبد الغيظ بالحجاج وقال له: ألديك دليل من القرآن؟ فقال يحيى: معي الدليل من القرآن! فقال الحجاج متهكمًا: ما شاء الله، أفي القرآن أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله؟ فقال له: نعم.!

وفكر الحجاج ملياً ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عز وجل: (فَمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ العِلمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبناءَنا وَأَبْنَاءَكم وَنِساءَنا ونِساءَكُم و أنفُسَنا و أنفُسَكُم ثُمَّ نَبتَهل فَنَجعَل لَعنةَ اللهِ على الكاذبينَ) وأن رسول الله ﷺ خرج للمباهلة، ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال له يحيى: والله، إنها لحجة في ذلك بليغة، ولكن ليس منها أحتج لما قلت، فاصفرَّ وجه الحجاج، وأطرق مليًا ثم رفع رأسه إلى يحيى وقال: إن جئت من كتاب الله بغيرها في ذلك، فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت بها، فأنا في حلٍ من دمك، فقال يحيى يقول الله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ

كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ) [1]

فلما انتهى من تلاوتها، نظر للجمع الحاشد وقال للناس: أيكون عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام بنص القرآن، ولا يكون الحسين من ذرية الرسول ﷺ، وبينهما من القرابة الدانية، أكثر مما بين عيسى و إبراهيم؟! فبهت الحجاج، ورأى أن من الحكمة، أن يحتوي الموقف ويتراجع، حتى لا يزداد حرجه، فتصنع التبسم وقال في وداعة: اجلس يا يحيى فقد فاتني هذا الاستنباط، وهنا.. كان مؤملاً ليحيى أن يتنفس الصعداء، ويحمد الله أن نجاه من كيد هذا الطاغية الذي لا يعرف شفقة ولا رحمة.. كان بإمكانه أن يحمد الله على انتهاء هذه الملحمة بالنصر الأكيد له، ونجاته من الحرج والإهانة، ويحمد الله على قيامه فيها بواجبه ويكتفي.. كان يمكنه أن يعود لهدوئه خاصة أن الطاغية يخاطبه بوداعة ولين.. وفوق ذلك يتقرب إليه ويطلب منه الجلوس.! لكن العالم الثائر يأبى أن تلين ثورته على خصمه، ويرفض أن يطوي سيف الحق في مواجهته، وأخرج كل ما في جعبته من سهام الحق ليهده بها.. لقد أراد أحد الجالسين أن يصرف الحديث إلى موضوع آخر، بعد أن تأزم الموقف، فسأل الحجاج عن واسط، وهي المدينة الجديدة التي بناها، فارتاح الحجاج لهذا الانتقال، وأخذ يطنب في وصف سخائه في الإنفاق على تشييدها، وأراد أن يتودد إلى يحيى مرة أخرى، لأن النفس مازالت ملتهبة من حجته التي أخرست أمله، فمال إليه وسأله برفق: لَم تذكر لنا رأيك في مدينة واسط يا يحيى؟ فسكت الرجل ولم يرد، وتوجهت العيون إليه، فزادت من حرج الحجاج، فأعاد سؤاله في غيظ.. وهنا جأر يحيى بالحق فقال:

---

١ - الأنعام :٨٣-٨٥

- أيها الأمير، ماذا أقول في واسط، وقيد شيدتها من غير مالك، وسيسكنها غير أهلك؟! فصاح الحجاج في انفعال! ما حملك على قول هذا؟ فقال يحيى في اعتداد: ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم ألا يكتموا الناس حديثا! ورأى الحجاج أنه قد تورط، وبلغ به الغيظ مبلغه فصاح بيحيى: لا تساكنني ببلد أنا فيه، فاذهب منفيًا إلى خرسان.. ونُفذ الحكم وذهب إلى منفاه.! وهنا يريد يحيى أن يُعلم الأمة كلها درسًا كبيرًا في الثبات واليقين والتصدي بكل قوة لكل طاغية أثيم.. بل أراد أن يوجه رسالة تشد أزر كل عالم حر ثائر، أن لا يخاف جبارًا أو عتيًا مادام قلبه معلق بالله ولا يخشى سواه.. وذلك حين رد على ذلك الخرساني الذي مال عليه وسأله متعجبًا: ألم تخش سيف الحجاج حين قلت ما قلت؟

فرد عليه قائلاً: لقد ملأتني خشية الله، فلم تدعْ مكاناً لخشية إنسان.

ما أروع هذا المثال البطولي، الذي يعظم قول الحق ولا يجعله رخيصًا فيعلي عليه ما شاء من أقوال الباطل، التي تُرضي السلاطين والحكام فيمن يكرهون من الناس والتيارات والجماعات والأحزاب، ويجعلون دينهم رخيصًا حينما يستخدمون سلاح الفتوى فيكفرون ويفسقون أعداء الأنظمة، ومعارضي الملوك والرؤساء.. إن يحيى بن يعمر كان عظيمًا في صلابته، عزيزًا في مكانته، ولم يقبل أبدًا أن ينزل على هوى الفاسدين، أو يهادن الطاغين، مهما مسه في ذلك من أذى وعنت.. لأن نفسه ركنت إلى الله واعتزت بجنابه، فصارت حرة أبية لا يفزعها أو يهولها أن تثور وبكل شجاعة وجرأة، في وجه هؤلاء الجبناء.!